ونحن نريد أن ننتقل إلى زميله ابن المعتز ، فقد صنع فى الهجاء كذلك صنيعاً جميلا ، وسخر وتسلّى وتندّر ، فقال فى عجوز :

عجوز تَصابى وهى بكرٌ بزعمها ومُذْ ألف عام قد وَجى خدَّها الواجى
تَرى شعرَها تحتَ القناع كأنهُ ضَفائرُ ليف فى هدية حجاج

فأبدى صورة لها خالدة على الأيام لأنها تقع فى كلّ عصر ومصر ، وتدور بين الناس ، فلا تشعر بما يبدو على الأفواه من بسمات أو من سخر ، تتصابى وقد خدد الزمان فى وجهها سطور العجز والجهد . وشعرها تحت القناع كالليف يهديه الحجاج . وثمة عجوز أخرى علق بوصفها فشبه شعرها بالقطن المنفوش ثم قال فى ريقها :

خبيثة ريح الريق تحسب هُدهداً يبيضُ بفيها ثاوياً ويُعشِّش

وفى هذا إقذاع وبراعة ، حين نتخيل الهدهد وقد جعل من فمها عشه ، فأودع فيه ما يملأ الفلاة رائحة خبيثة كريهة .

والمتنبى تسلم راية الهجاء فى عصره ، فوصف كافوراً بسواده وغلظ مشفريه . فقال .

وأسودُ مشفرهُ نصْفه يُقالُ له : أنتَ بَدْرُ الدجى

فبالغ على عادته وجعل مشفر الرجل يعادل نصف جسمه . ومع ذلك يقول له الناس متملقين : أنتَ بدرُ الدجى ، ثم وصف جسمه وبطنه فقال :

منْ كلّ رِخْوٍ وكاء البطن منفتق لا فى الرّجال ولا النسوان معدود
إن امرأ أمَةٌ حبلى تدبرُه لمستضامٌ سخين العين مفؤود

فهو رخو البطن منفتق . لا هو فى الرجال ولا هو فى النساء . بل إنه امرأة حُبلى فى هيئته وسمنه . ومع ذلك يحكم مصر كلها ويدبّر أمرها ، ويملكُ الزمام فيها . فيالتعاسة هؤلاء المحكومين . ويرسمه بعد ذلك بقوله :

وتُعجبنى رجلاكَ فى النعل إننى رأيتُك ذا نعل إذا كنتَ حافيا
وأنك لا تَدْرى ألونك أسودٌ من الجهل أم قدْ صار أبيض صافيا